ذكرى وادي المخازن

بقلم الاستاذ مولاى عبد السلام الامرانى

لكل أمة ذكريات خالدة تعتز بها، وأيام ماجدة تنعم بالعيش في ظلالها، فما أجمل الذكريات، وما أجمل أيامها العاطرة، وما أجمل دروسها الحية، فلولاها ما كان للحياة مذاق تطيب به، ولا جمال ترفل فيه.

وإذا كانت الذكريات في عمومها تختلف اختلافا كبيرا في معناها ومغزاها وفي قيمتها ودلالتها، فإن من حسن حظ الأمة الإسلامية عموما، والمغربية خصوصا أن كان تاريخها حافلا بأسمى الذكريات، غنيا بالأيام الخالدات.

لنأخذ من تلك الذكريات ذكرى حافلة بالفرر، ناطقة بالعبر، لمن يقرأ فيتذكر، **ذكرى عزيزة علينا يظلنا** تاريخها كلما مر بنا 4 **غشت من كل سنة، وقد جرت** أحداثها عام 1578م، وهي **ذكرى وادي المخازن، ولما** كانت وقعتها حاسمة، شبهها بعض العلماء بغزوة بدر، فلنستعرضها الآن، بعد تقديم مناسب آملين أن تلهمنا في مسيرتنا وتنير الطريق أمامنا، **والذكرى تنفع المؤمنين.**

للمسلم أن يفتخر بالحروب الإسلامية التي لم تعرف الظلم في أي عهد من عهودها ولم تتلطخ بالمطامع الاستعمارية، لا في شرق ولا في غرب، وإنما كانت خيرا ونعمة على البشرية، لأنها ألفت بين مختلف أجناسها، وجمعتها على عقيدة التوحيد، ونشرت بينها العدل والرحمة والتعاون والمعرفة، وقضت على أسباب الخلاف والأنانية والأحقاد، وبالتالي على الاستعمار والحروب.

ومع النجاح الذي أحرزته الدعوة الإسلامية في تاريخها الطويل، فقد كان من الطبيعي أن يكون لها خصوم أعداء، يناصبونها العداء، ولم يكن هؤلاء الخصوم غير الصليبية الحاقدة، التي تتابعت الهزائم عليها شرقا وغربا، واستمرت إلى ما قبل القرنين الأخيرين فلم تزدها تلك الهزائم إلا حقدا وتربصا، واستعدادا للانتقام، للتنفيس عن غيظها وحقدها.

وحسبت الصهليبية أن الفرصة واتتها حين استنجد محمد الشيخ السعدي، الملك المخلوع المغرور، سنة 1578م بالبرتغال ضد عمه أبي مروان عبد الملك، ملك المغرب الشرعي، فسارع ملك البرتغال سبستيان لنجدته، ووجد العون السخي عند اسبانيا وألمانيا وإيطاليا، وحتى عند البابا صاحب روما، وكيف لا يتسابقون إلى الدعم والروح الصليبية تحركهم وتمنيهم باحتلال الشواطئ المغربية، كمقدمة لاحتلال لا تحده حدود، بعد سنوح

الفرصة المواتية.

نعم حسبت البرتغال والدول المساندة لها أن الفرصة مواتية لتحقيق أحلامها وأعجبتها كثرة أعدادها وقلة أعدائها، أما الشجاعة العربية والتضحية الإسلامية، والوطنية المغربية، فلم يدخل ذلك في حسابها، لكن الواقع خيب ظنون العدو.

كانت معركة وادي المخازن كأشد ما تكون المعارك، حمي وطيسها والتهب أوارها وأبلى فيها المؤمنون بلاء حسنا، ومن سوء الحظ وصل السلطان عبد الملك إلى ساحة القتال في حالة مرض، ولم تتوقف الحرب حتى توقفت أنفاسه ولبى داعي ربه.

وبرغم ذلك جاءت النتيجة في آخر، طبق المثل السائر : على الباغي تدور الدوائر.

وقد ساهم في الانتصار، إلى جانب الشجاعة الوطنية عامل الذكاء المغربي، وقد برز في مظهرين :

الأول : قول السلطان عبد الملك لخصمه سبستيان : إني رحلت إليك ست عشرة مرحلة أما ترحل إلي واحدة ؟ فرحل الطاغية ونزل على وادي المخازن، ثم تقدم بجيوش وعبر جسر الوادي، وحينئذ أمر السلطان بالقنطرة أن تهدم، ثم أمر جيشه بالزحف وتلاقى الجمعان، ولما اضطر العدو للتراجع تحت ضربات المسلمين وضغطهم عليه، لم يجد سبيلا غير إلقاء نفسه في الوادي الذي لم يكن له معبر غير القنطرة المحطمة، فكان في ذلك حتفه.

الثاني : من مظاهر الذكاء المغربي، أن موت السلطان عبد الملك أثناء المعركة الدائرة بقي سرا مكتوما عند حاجبه وأخيه أبي العباس أحمد، واستمرت الأوامر تقدم للقواد باسمه بعد موته، وبذلك حفظ الله البلاد من الفتنة، ويروى أنه مات وأصبعه على فمه، وليس ذلك بمستبعد على رجل قاد شعبه وقابل خصمه صحيحا ومريضا، بل حيا وميتا، واتفقت الروايات على أنه مات مسموما.

مغزى المعركة :

لمعركة وادي المخازن أكثر من مغزى، وإن عظمة هذه المعركة وكل معركة تقاس بمغزاها وعمق معناها، فبأيها ننوه ؟ وبأيها نحتفل ؟ هل ننوه بالدرس الذي كشف عن عاقبة الخيانة ومآل الخائن ؟ أم ننوه بالاستعانة بالطبيعة على العدو، واستدراجه إلى حتفه ؟ أم ننوه بمزايا حفظ السر، وخصوصا في المواقف الفاصلة ؟ أم ننوه بمشاركة العلماء الأعلام، أمثال الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي ؟ أم ننوه بالهزيمة الساحقة التي نزلت بالعدو، والتي كادت تأتي على جميع أفراد الجيش الأمر الذي أفقد البرتغال شخصيتها كدولة ذات كيان، وألجأها إلى الانضواء تحت راية جارتها اسبانيا ؟ أم ننوه بعواقب الطيش الذي وقع فيه المستنجد والمستنجد به ويقع فيه أمثالهما، وما يجر النظر السطحي للأمور من أسواء :

يغمى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

عبد السلام الأمراني